المفارقة في رسالة التربيع والتدوير للجـــاحـظ

د. عادل صالح حسن نعمان المقرمي
استاذ النقد الأدبي المساعد –بكلية الآداب – جامعة الحديدة
adels22222@yahoo.com

الملخص

يحتوي الأدب العربي على كثير من القصص التي تناولت السخرية والتهكم بالآخر وتصويره، والكشف عما يعانيه المجتمع العربي من تناقضات، ولعل أبرز هذه العصور التي جمعت المتناقضات هو العصر العباسي، ومن أبرز كتاب هذا العصر وأدبائه الجاحظ الذي ألف في هذا المجال، ومن كتبه (التربيع والتدوير) الذي سخر فيه من أحمد بن عبد الوهاب، حيث عمد الجاحظ فيه إلى التنويع من أساليب التهكم بخصمه.

ويهدف هذا البحث إلى تناول مفهوم المفارقة وأصولها وتعريفاتها المختلفة ، والفرق بينها وبين التهكم والسخرية، كما يهدف إلى الكشف عن هذه الأساليب ودلالاتها المختلفة باستخدام آلية المفارقة، لما لها من دور في الكشف عن هذه التناقضات باعتبارها آلية من آليات القول لها معنيان: سطحي ظاهر، ومراوغ للسطحي.

وقد قسمت البحث إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة وقائمة بالمصادر والمراجع، حيث احتوى المبحث الأول على مفهوم المفارقة، وتطورها عبر العصور المختلفة، والمبحث الثاني على تجليات المفارقة في كتاب(التربيع والتدوير).

11

Abstract

Arabic literature contains a lot of stories that dealt with making irony and sarcasm on others and revealing contradictions that were found in the Arab society. The most prominent ages which contains these contradictions was the Abbasid, and the most prominent writer of that age was Al-Jahez whose book (Al Tarbee'a Wa Al Tadweer) was one of the famous book in this field. In this book Al-Jahez mocked his antagonist, Ahmad Ibn-Abdulwahaab, by using different styles of irony.

This paper aims at detecting the concept of the paradox, its origins, its different definitions and the difference between it and the sarcasm and irony . It also aims at showing these styles and their various connotations by using the mechanism of the paradox because of its role in detecting these contradictions and because it is considered as one mechanism of the speech mechanisms with two meanings: Superficial meaning, and devious of the superficial.

This paper consists of an introduction, two sections, a conclusion, and a list of references, with the first section containing the concept of paradox , and its development through the ages. The second section includes the manifestations of the paradox in the (Al Tarbee'a Wa Al Tadweer) book.

مقدمة:

يميل الإنسان بطبعه إلى الفكاهة وحب المزاح والتظرف، فالملهاة "تطهر المرء بالسرور والضحك من أمثال هذه الانفعالات"(لخ)، وقد ملئت كتب الأدب العربي بكثير من ألوان السخرية والتهكم، فهي تصور كثيراً من الشخصيات بأساليب متنوعة من التهكم والسخرية، حيث تكشف من خلالها عيوب هذه الشخصيات، وما يعانيه المجتمع من تناقض في الحياة، وتستهدف إصلاح كثير من هذه العيوب، ولعل أبرز عصر جمع هذه المتناقضات هو العصر العباسي، وفي هذا العصر نشأ الجاحظ محباً للفكاهة والسخرية بالآخرين، ومن كتبه المتضمنة التهكم والسخرية كتاب(التربيع والتدوير)، يسخر فيه من أحمد بن عبد الوهاب، وقد نشره (شارل بلات) محققاً في دمشق عام 1955م، ونشر عبدالسلام هارون فصولاً منه ضمن رسائل الجاحظ.

ويسعى هذا البحث إلى الكشف عن الأساليب التي اتخذها الجاحظ في هذا الكتاب، وكيفية توظيف هذه الأساليب في التهكم بخصمه، بالاستعانة بآلية المفارقة؛ لما لها من دور في الكشف عن ازدواجية التناقضات في النص، والتعامل مع البنية المراوغة فيه، وترك القارئ يحدد دلالاتها المختلفة.

وقد قمت بتقسيم البحث إلى مقدمة ومبحثين وخاتمة، وقائمة بالمصادر والمراجع، حيث احتوى المبحث الأول على مفهوم المفارقة، وتطورها عبر العصور المختلفة، والمبحث الثاني على تجليات المفارقة في كتاب(التربيع والتدوير).

1 هلال، محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1997م، ص 86- 87.

المبحث الأول

مفهوم المفارقة

لمادة فَرَقَ في لسان العرب معان متعددة تدل على التباين والاختلاف، يقول ابن منظور: "الفَرْقُ: خلاف الجمع، فَرَقه يَفْرُقُه فَرْقاً وفَرَّقه، وقيل: فَرَقَ للصلاح فَرْقاً، وفَرَّق للإفساد تَفْريقاً، وانْفَرَقَ الشيء وتَفَرَّق وافْتَرَقَ.... والتَّفَرّقُ والافْتِراقُ سواء، ومنهم من يجعل التَّفَرّق للأَبدان والافْتِراقَ في الكلام.... وفارَقَ الشيءَ مُفَارقةً وفِرَاقاً: بايَنَهُ، والاسم الفُرْقة. وتَفَارق القومُ: فَارَقَ بعضهم بعضاً، وفَارَقَ فلان امرأَته مُفَارقةً وفِراقاً: بايَنَها"(بر).

ووزن المفارقة المفاعلة وتعني بذلك "مظاهر التناقض والتضاد التي تنظم ظواهر الوجود والحياة، وأحداث المجتمع، وسلوك الناس ومواقفهم، حيث يباين وجه وجهاً آخر مباينة تكشف عن تضاد أو تناقض"(تر)، وهي شيء أساس في حياة الإنسان، يحس بها ويدركها أثناء تعامله مع الأحداث المتناقضة التي تملأ الحياة والمجتمع، والأدب جزء من المجتمع يتأثر بتناقضات الحياة وسلبياتها وإيجابياتها، إنها "نظرة الى العالم وموقف من حقيقة الأشياء"(ير). بلفظ آخر هي "نظرة إلى الحياة تدرك أن الخبرة عرضة لتفسيرات شتى لا يكون واحد منها هو الصحيح، وتدرك أن وجود التنافرات معاً جزء من بنية الوجود"(سم)، ويرى (فريدريك شليكل) أن المفارقة تقوم على "إدراك حقيقة أن العالم في جوهره ينطوي على تضاد، وأن ليس غير موقف النقيضين ما يقوى على إدراك كليته المتضاربة"(شم).

ولم يرد مصطلح المفارقة في مصادر النقد والبلاغة – حسب علمي - غير أن ثمة مصطلحات يمكن أن تقاربها في هدفها من ذلك: التهكم(له)، والمدح في سياق الذم، والذم في سياق المدح، وتجاهل العارف، ويعد

---

[2] ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي –مؤسسة التاريخ العربي، بيروت –لبنان، ط2، 1418هـ 1997م، 243/10.

[3] عبد الجليل، حسني، المفارقة في شعر عدي بن زيد العبادي – الموقف والأداة، حسني عبد الجليل، دار الوفاء، الإسكندرية –مصر، ط1، 2009م، ص 11.

[4] رشيد، أمينة، المفارقة الروائية والزمن التاريخي، مجلة فصول، م11- عدد4، 1993م، ص 157.

[5] ميويك. د. سي، المفارقة وصفاتها، ضمن كتاب موسوعة المصطلح النقدي، ترجمة/ عبد الواحد لؤلؤة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، ط1، 1993م، ص36.

[6] نفسه،4/ 32.

7يعرف العلوي التهكم بقوله" هو إخراج الكلام على ضد مقتضى الحال استهزاءً بالمخاطب" ، العلوي، يحيى بن حمزة، الطراز: ، تحقيق/ هنداوي، عبدالحميد، المكتبة العصرية ، بيروت– لبنان، ط1، 1423هـ– 2002م 3/ 91، ويعرفه ابن أبي الأصبع بقوله" الإتيان بلفظ البشارة في موضع الإنذار، والوعد في مكان الوعيد والمدح في معرض الاستهزاء"، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، ابن أبي الإصبع، تحقيق/ حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ،1995م، 568/2، ويفرق بين التهكم والهجاء بقوله" إن التهكم لا تخلو ألفاظه من لفظة من اللفظ الدال

محمد العبد التهكم مقابلاً للمفارقة حيث يقول: "يجوز لنا القول بأن ظاهرة المفارقة التي يهتم بها علماء الدلالة والأسلوب، قد عرفت طريقها - على نحو ما - إلى البحث البلاغي العربي القديم، وبعض المباحث اللغوية اليسيرة، تحت مصطلح التهكم"(□)، وفي موضع آخر يذكر أن المفارقة أخص من التهكم"في اشتراطها عنصر الضدية الذي يخلو من التهكم؛ ولأن المفارقة أشد ارتباطاً بعلم الدلالة"(□).

ويعرف خالد سليمان المفارقة بقوله: "هي إما أن يعبر المرء عن معناه بلغة توحي بما يناقض هذا المعنى أو يخالفه، ولا سيما بأن يتظاهر المرء بتبني وجهة نظر الآخر؛ إذ يستخدم لهجة تدل على المدح، ولكن بقصد السخرية أو التهكم، وإما هي حدوث حدث أو ظرف مرغوب فيه، ولكن في وقت غير مناسب البتة، كما لو كان في حدوثه ذلك الوقت سخرية من فكرة ملاءمة الأشياء، وإما هي استعمال اللغة بطريقة تحمل معنى باطناً موجهاً لجمهور خاص مميز، ومعنى آخر ظاهراً موجهاً للأشخاص المخاطبين أو المعنيين بالقول"(10)، أي أن المفارقة يتجلى فيها معنيان معنى سطحي ظاهر، ومعنى عميق يفهمه المتلقي من السياق وهو المقصود، فهي" شكل من أشكال القول يساق فيها كمعنى ما، في حين يقصد منه معنى آخر غالباً ما يكون مخالفاً للمعنى السطحي الظاهر"(لخ لخ)، وهي" استراتيجية قول نقدي ساخر، وهي في الواقع تعبير عن موقف عدواني، ولكنه تعبير غير مباشر يقوم على التورية، والمفارقة طريقة لخداع الرقابة، حيث إنها شكل من الأشكال البلاغية التي تشبه الاستعارة في ثنائية الدلالة"(بر لخ)، وهي على الرغم من تشابهها مع الاستعارة في ثنائية الدلالة، فإنها تختلف عنها في كون المفارقة تحتوي أو تتضمن علاقة توجه المتلقي نحو التفسير السليم الذي يريد إيصاله للمتلقي. يقول دي سي ميويك" المفارقة الهادفة لعبة يقوم بها اثنان ... فصاحب المفارقة الذي يقوم بدور الغرير يعرض نصاً ولكن بطريقة أو سياق يدفع القارئ أن يرفض ما يعبر عنه من معنى حرفي، مفضلاً ما لا يعبر عنه النص من معنى منقول ذي مغزى نقيض"(تر لخ) .

على نوع من أنواع الذم، أولفظة يفهم من فحواها الهجو، وألفاظ المدح في هذا الباب لا يقع فيها شيء من ذلك، ولاتزال مفرقة ومجتمعة تدل على مجرد المدح حتى يقترن بها ما يصرفها عن ذلك" تحرير التحبير ، 552/2.

[8] العبد، محمد، المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2، 1406هـ - 2006م ص 20.

[9] نفسه ص 22.

[10] سليمان، خالد، المفارقة والأدب – دراسات في النظرية والتطبيق، دار الشروق، عمان– الأردن، ط1، 1999م، ص 14.

[11] قاسم، سيزا، القص العربي المعاصر، مجلة فصول، مج2، عدد2، فبراير– مارس 1982 ص 144.

[12] نفسه ص143.

[13] ميويك ، المفارقة وصفاتها، ص171.

وتلعب التناقضات والتنافرات الطبيعية بين عناصر هذا الكون الواسع دوراً كبيراً في بروز مفهوم المفارقة وتوسيع دلالاتها، فهي "تقوم في المقام الأول على رؤية تأملية فلسفية للذات والوجود"(ير لخ)، إنها "تعبير لغوي بلاغي يرتكز أساساً على تحقيق العلاقة الذهنية بين الألفاظ أكثر مما يعتمد على العلاقة النغمية أو التشكيلية، وهي لا تنبع من تأملات راسخة ومستقرة داخل الذات؛ فتكون بذلك ذات طابع غنائي أو عاطفي، ولكنها تصدر عن ذهن متوقد شديد للذات بما حولها"(سم لخ).

وقد تعددت تعريفات المفارقة وتنوعت أشكالها واختلفت وجهات النظر التي تناولتها، فهي كما يقول ميويك: "مفهوم غامض، غير مستقر ومتعدد الأشكال"(شم لخ)، وأول ظهور لها كان في "بعض ترجمات كتاب الشعر لتقابل كلمة أرسطو (انقلاب الحال) التي تفيد انقلاباً مفاجئاً في الظروف"(لم لخ) وقد" ورد المصطلح في جمهورية أفلاطون على لسان أحد الأشخاص الذين وقعوا فريسة محاورات سقراط، وهي طريقة معينة في المحاورة لاستدراج شخص ما حتى يصل إلى الاعتراف بجهله، وكانت الكلمة نفسها تعني عند أرسطو الاستخدام المراوغ للغة، وهي عنده شكل من أشكال البلاغة، ويندرج تحتها المدح في صيغة الذم، والذم في صيغة المدح"(□ لخ). ويبدو أنها كانت تعني"الأسلوب الناعم الهادئ الذي يستخف بالناس"(□ لخ)، وتعني عند ثيو فراستوس" امرؤ مراوغ غير ملتزم، يخفي عداوته، يتظاهر بالصداقة، لا يبدي أفعاله على حقيقتها، ولا يدلي بجواب واضح أبداً"(لح بر)، وقد برزت المفارقة بوصفها مصطلحاً أدبياً في القرن الثامن عشر الميلادي وتعني: " قول المرء نقيض ما يعنيه، أو أن تقول شيئاً وتقصد غيره، أو أن تمدح لكي تذم، أو تذم لكي تمدح، أو سخرية وهزء، ثم صارت تستخدم لتفيد التظاهر"(لخ بر)، فهي عند (شليجل)" شكل من أشكال النقيضة، وعند (بوث) لعبة لغوية ماهرة وذكية بين عنصرين أحدهما صانع المفارقة والآخر قارؤها"(بر بر)، وعند صموئيل جونسون "طريقة من طرائق التعبير يكون فيها المعنى مناقضاً أو مضاداً للكلمات، وعند صموئيل

---

[14] عبدالجليل، حسني، المفارقة في شعر عدي بن زيد العبادي، ص14.

[15] إبراهيم، نبيلة، قضايا المصطلح الأدبي، مجلة فصول، مج7،ع3،4، إبريل- سبتمبر 1987ص 134.

[16] ميويك، المفارقة وصفاتها، ص 19.

[17]نفسه، ص 139.

[18] إبراهيم، نبيلة، المفارقة، مجلة فصول: الهيئة المصرية العامة للكتاب، المجلد السابع، الثالث والرابع، إبراهيم ــ سبتمبر، 1987م، ص 131 ــ 132.

[19]المفارقة: ميويك، ص 140.

[20]نفسه.

[21]نفسه، ص 142.

[22] شوقي، سعيد، بناء المفارقة في المسرحية الشعرية، إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة –مصر، ط1، 20001م، ص 27.

هانز نظرة للحياة تجد الخبرة عرضة لتفسيرات متنوعة ليس فيها واحدة صحيحة دون غيرها وذلك لأن التنافر من طبيعة الوجود"(تر بر).

وإذا رحنا نبحث عن العناصر التي تحدد المفارقة نجد نبيلة إبراهيم تحددها في عنصرين(ير بر):

الأول: وجود مستويين للمعنى في التعبير الواحد: المستوى السطحي للكلام، والمستوى الكامن الذي لم يعبر عنه والذي يلح القارئ على اكتشافه.

والآخر: لا يتم الوصول إلى إدراك المفارقة إلا بإدراك التعارض أو التناقض بين الحقائق على المستوى الشكلي للنص.

وهي عند خالد سليمان ثلاثة عناصر(سم بر):

الأول: الكلام الذي يتم تنسيقه في منظومة معينة بحيث يؤدي الدال في هذه المنظومة مدلولات سياقية لمدلوله المعجمي.

والثاني: الرسالة وما تحمله المفارقة من المعاني أو الدلالات النقيضة للدلالة المعجمية، أو ما تود المفارقة أن تحققه في نفس صاحب البصيرة من رؤية.

والثالث: صاحب البصيرة، وهو واحد أو أكثر الأطراف: الباث، المتلقي، الضحية.

وتقوم المفارقة عند سعيد شوقي على خمسة عناصر:

الأول: ازدواج المعنى(شم بر)(ثنائية الدلالة): أي وجود مستويين للمعنى.

والثاني: تنافر الإدراك(له بر): أي التضاد أو التنافر بين المعنى السطحي والمعنى العميق.

والثالث: خداع الأداء(□ بر): فلكي تحقق المفارقة فعلها في التنافر في الانتقال بين المستويين فلابد أن تسلك طريق الخداع إما بالمفارقة اللغوية، وهو ما يعرف بمفارقة الموقف.

والرابع: ضحية الأثر(□ بر): أي الطرف الذي يقع عليه مضمون المفارقة.

---

[23] سليمان، خالد، المفارقة والأدب، ص 17.

[24] إبراهيم، نبيلة، المفارقة، ص 33.

[25] سليمان، خالد، المفارقة والأدب، ص 18.

[26] شوقي، سعيد، بناء المفارقة في المسرحية الشعرية، ص 38.

[27] نفسه، ص 47.

[28] نفسه، ص 56.

[29] نفسه، ص 76.

والخامس: الذات المفارقة(لح تر): أي متلقي المفارقة الذي يجب أن يكون صاحب سرعة خاطر وذكاء بحيث يدرك النبرة التي يرسلها صاحب المفارقة باللغة، ويدرك أن هذا العمل لا يفهم إلا إذا رفض ظاهرياً، ومن ثم يحاول البحث عن بديل لهذا الرفض في الإشارات اللغوية، واختلاف وجهة النظر الحقيقية لصاحب المفارقة التي تختلف مع ما يطرحه ظاهرياً..

والمفارقة مصطلح غربي ورد إلينا عبر الترجمات المختلفة للغات الأوربية إلى العربية، وقد اختلفت الترجمة بين مصطلحين (Irony) و (Paradox) فمنهم من يترجم المصطلح الأول بـ(المفارقة) والثاني بـ(النقيضة)(لخ تر)، ويعد عبد الواحد لؤلؤة من أوائل النقاد العرب الذين تناولوا المفارقة من خلال ترجمته لكتاب (المفارقة) لـ(دي سي ميويك) حيث يقول: "المفارقة (Irony) صيغة بلاغية تعبير عن القصد باستخدام كلمات تحمل المعنى المضاد، والمفارقة أخف من الهزء والسخرية لكنها أبلغ أثراً بسبب أسلوبها غير المباشر..وهي أحسن الحلول السيئة لترجمة الصيغة البلاغية، وهي ضرب من المفارقة، يقصد إلى التعبير عن ضخامة الشيء بوصفه بالنقيض من ذلك.... وأصل الكلمة هو اسم (آيرون) أحد الشخصيات في الكوميديا، أي: التظاهر والادعاء بغير الحقيقة، ويفيد الاسم معنى(المفرِّق)، أي: الذي يفرِّق بين المظهر والحقيقة"(بر تر).

ويورد معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب مصطلح (Irony) ويترجمه بـ(السخرية)، فهذه الكلمة يونانية وأصلها" أيرونيا التي اشتُقَّ منها المصطلح الأوربي كانت وصفاً للأسلوب في كلام إحدى الشخصيات بالملهاة اليونانية القديمة المسمى (أيرون)، وكانت هذه الشخصية تتميز بالضعف والقصر مع الخبث والدهاء، كما كانت دائماً تتغلب على الألازون الفخور الأحمق، وذلك عن طريق الخداع وإخفاء ما يمتاز به من قدرة وذكاء، وبقي المصطلح الأوربي يحتفظ بذلك المعنى، فسخرية سقراط في محاورات أفلاطون تتميز بالتظاهر بالجهل وإخفاء الذكاء، وباستعداده للتسليم بآراء مختلفة؛ بغية الوصول إلى البرهنة على بطلانها"(تر تر).

---

[30] نفسه، ص 79.

[4] ممن ترجم (**Irony**) بـــ المفارقة و(**Paradox**) بـــ التناقض ناصر شبانة في كتابه (المفارقة في الشعر العربي الحديث)، ومنى الساحلي في كتابها (التضاد في النقد الأدبي)، ونصرت عبد الرحمن في كتابه (في النقد الحديث)، ويترجم العب، محمد في كتابه المفارقة القرآنية (**Paradox**) بـــ(التناقض الظاهري).

[32] المفارقة وصفاتها، ص258، 260.

[33] وهبة، مجدي – المهندس كامل، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت – لبنان، ط2، 1984م، ص 198.

ويترجم مصطلح (Paradox) بـ(المفارقة)، وهي" في الفلسفة إثبات لقول يتناقض مع الرأي الشائع في موضوع ما بالاستناد إلى اعتبار خفي على هذا الرأي العام حتى وقت الإثبات"(بير تر).

وفي قاموس المورد نجد كلمة (Paradox) تعني:

الأول: "العبارة الموهمة للتناقض: عبارة متناقضة ظاهرياً أو مناقضة للعقل ومع ذلك فإنها قد تكون صحيحة.

والثاني: العبارة الموهمة للصحة: عبارة منطوية على تناقض ذاتي تبدو لأول وهلة صحيحة.

والثالث: الظاهري التناقض: كل ذي صفات متناقضة ظاهرياً.

والرابع: مفارقة"(سم تر) .

والسخرية (Irony) هي البذرة الأولى لنشوء المفارقة (Paradox)، وتعد السخرية قرينة السياق، إذ تكشف التناقض بين المعنيين الظاهري والعميق، فالتناقض العميق يعني استحالة التوفيق بينه وبين المعنى الظاهري، بينما تُزيل القرينة(السخرية والتهكم) التناقض بين المعنيين وتجمع بينهما، ومن أمثلة ذلك قوله تعالى: "فبشرهم بعذاب أليم"(شم تر)، فالبشرى هو النعيم، والآية في سياق الجحيم غير أن السخرية والتهكم تجمع بين المعنيين، ومن ثم يكون التناقض بين البنيتين السطحية والعميقة ظاهرياً، وهو ما نقصده بالمفارقة" ولأن السخرية يكون فيها –غالباً - ذلك التعارض والتضاد بين المعنى السطحي والمعنى العميق تطمئن النفس إلى أن تكون ترجمة المصطلح الدال على المفارقة في عمومها وشمولها، أي في كل تناقض حادث بين طرفين هو(Paradox)، بينما يستخدم المصطلح (Irony) حينما تدخل السخرية او التهكم إلى رحاب النص؛ مما يؤذن بحدوث المفارقة سواء أكانت لفظية أم موقفية..."(له تر)، وليس كل سخرية مفارقة، فقد ترد السخرية ويقصد منها التقليل من شأن موضوع ما، أو في الإحساس بالإحباط أو اليأس." إن التهكم الذي لا يقوم على إبراز التناقض بين طرفين تهكمٌ لا يتصل بالمفارقة، وأن المفارقة التي لا تتصل بالسخرية ظاهرة وباطنة ليست تهكماً. لكننا رغم ذلك نستطيع أن نلمح في كثير من صور التهكم نوعاً خفياً من المفارقة،

---

[34]نفسه، ص 376.

[35]ا البعلبكي، منير، المورد، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان، ص 656.

[36]سورة الانشقاق، آية 24.

[37]عبد المولى، أحمد عادل، بناء المفارقة – دراسة نظرية تطبيقية – أدب ابن زيدون نموذجاً، مكتبة الآداب، القاهرة – مصر، ط1، 1430هـ – 2009م، ص 35.

كما نستطيع أن نلمح في كثير من صور المفارقة نوعاً خفياً من التهكم، ومن هنا فإن علينا أن نوسع من نظرتنا للمفارقة على أساس أنها تضم صوراً قد يكون من التعسف أن نحصرها في إطار التهكم والسخرية"(□ تر)، ولا تكون السخرية والتهكم مفارقة إلا إذا جمعت بين عناصر المفارقة والتورية والسخرية" فحضور عنصر المفارقة شرط أساس في التورية الساخرة حتى يصح أن نترجمها هي الأخرى بالمفارقة"(39).

المبحث الثاني

تجليات المفارقة في رسالة(التربيع والتدوير)

يعد العنوان علامة سيميائية تكشف ما يريد أن يقوله النص في قراءته الثانية، فالعنوان(التربيع والتدوير)، وهما وصفان وصف بهما الجاحظ جسد خصمه(أحمد بن عبد الوهاب) في مفارقة يتهكم من خلالها بخصمه، وهو ما يبدأ به كتابه، إذ يبدأ بالحديث عن المفارقة بين ادعاء هذا الخصم، وبين حقيقة هذا الادعاء، وتتولد هذه المفارقة خلال البنية المعجمية: فهو يدعي أنه مفرط الطول(لح ير)، وعادي القامة، وهو مفرط فعلاً، غير أن إفراطه في القصر لا في الطول كما يدعي، ويعمق الجاحظ هذه المفارقة من خلال الأوصاف التي يلصقها بالخصم، إذ يراه الرائي حيناً لضخامة وسطه مربعاً، وحيناً آخر يراه مدوراً لاتساع جفرته وخاصرته، ويدعي أنه سبط الشعر والجسم، في حين أنه جعد الأطراف، قصير الأصابع، طويل الظهر، قصير عظم الفخذ، وهو عكس ما يدعيه من كونه طويل الباد أي: باطن الفخذ، ويدعي الشباب وحداثة الميلاد في حين كونه كبير السن متقادم الميلاد، ويرى أنه قد أعطي بسطة في العلم والجسم، في حين أن علمه بها على قدر جهله، أي أنه لا يفقه شيئاً، وتتعمق المفارقة بتشبيه نفسه بـ(طالوت) الذي أعطاه الله البسطة في العلم والجسم وجعله ملكاً على بني إسرائيل.

لقد تهكم الجاحظ بخصمه عن طريق المفارقات القائمة على: الجدل والحوار والمقابلات والمغالطات، فهو يحتج تارة للطول، ويحتج تارة أخرى للقصر وثالثة للاعتدال، وهو يؤيد هذه الاحتجاجات بأدلة وبراهين تؤكد ما يقول، إذ" يمده تارة ويقصره تارة أخرى، وتارة ثالثة يبعِّجه في مناظر تستخرج منا الضحك على ما يصنع بصاحبه من تشويه" لخ ير، ويستمر الجاحظ في رسم مفارقاته لخصمه قائلاً: "وبعد فأنت – أبقاك

---

[38] عبدالجليل، حسني، المفارقة في شعر عدي بن زيد العبادي، ص13 .

[39] عبد المولى، أحمد عادل، بناء المفارقة، ص 38.

[40] الجاحظ، التربيع والتدوير، عُني بنشره وتوقيعه/ شارل بلات، المعهد الفرنسي بدمشق، دمشق سوريا، 1955م، ص 5 .

[41] ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف بمصر، القاهرة– مصر، ط9 ص 182.

الله - في يدك قياس لا ينكسر وجواب لا ينقطع، ولك حد لا يفل، وغرب لا ينثني، وهو قياسك الذي إليه تنسب، ومذهبك الذي إليه تذهب: أن تقول: وما عليَّ أن يراني الناس عريضاً وأكون في حكمهم غليظاً، وأنا عند الله تعالى طويل جميل، وفي الحقيقة مقدود رشيق. وقد علموا – حفظك الله – أن لك مع طول الباد راكباً، طول الظهر جالساً، ولكن بينهم فيك إذا قمت اختلاف، وعليك لهم إذا اضطجعت مسائل"(بر ير).

يستحضر النص الدلالة المعجمية لا ليؤكدها، بل ليتمرد عليها وينقضها، وبذا ينفتح النص على آفاق واسعة من الدلالة، ولا تكون المفارقة "بمفهومها الصحيح إلا في (النص المفتوح)، أي النص الذي تتعدد نواتجه؛ لأنها نواتج احتمالية لا تقبل اليقين، وهذه الاحتمالية تتولد - غالباً - عند اهتزاز العلاقة بين المواضعة والاستعمال الأدبي، وهذا الاهتزاز يبدأ محدوداً ثم ينتشر في كل جزئيات النص حتى يحيله إلى سبيكة أدبية مهيئة لدخول منطقة الشعرية من أوسع أبوابها" تر ير. في هذا المقطع يمهد للمفارقة بعدة صيغ:(وبعدُ، فأنت، أبقاك الله)، وهي صيغ تدل على الدنو من المخاطب وتقريبه، وتفصيل الخطاب، و توضيح ما أبهم على الخصم وتبصيره بما يمتلك من قدرات غابت عنه، ففي يده قياس يقيس به علاقته بالعالم من حوله، وهو بذلك يتهكم بهذا القياس الفاسد، ويوضح ذلك باستخدام الاستفهام الاستنكاري بـ(ما)، وتضخم الذات بكثرة الضمائر العائدة على الذات (ياء المتكلم في(عليَّ - يراني) و(أنا) والضمير المستتر في أكون، والمبالغة في إسباغ الأوصاف التي يدعي أنها له عند الله (طويل - جميل - مقدود - رشيق)، ويعمق المفارقة بالأوصاف التي ينسبها للقياس، والصيغ المستخدمة في هذا المقطع مثل: الدعاء للمهجو(أبقاك الله) مكرراً هذه الصيغة مرتين في المقطع، وكذا الصيغ:

في يدك قياس لا ينكسر

لك حد لا يفل

و جواب لا ينقطع

وغرب لا ينتهي

[42] الجاحظ، التربيع والتدوير، ص 13.

[43] عبد المطلب، محمد، كتاب الشعر، الشركة المصرية العالمية للنشر– لونجمان، ط1، 2002م، ص 59–60.

ويوضح المفارقة الحاصلة بين ادعاء ما له من جمال عند الله، وبين الحقيقة الواضحة في جسمه، ويبدأ ذلك باستخدام الفعل الماضي(علموا) مسبقة بـ(قد) التي للتحقيق في هذا السياق، فادعاؤه الرشاقة والطول حقيقة يتفق عليها الجميع معه إذا جلس أو ركب؛ لأنه قصير القامة، غير أنهم يختلفون في ذلك إذا قام، أو اضطجع، إذ يظهر قصره وقماءته، والجاحظ هنا يسقط ما في شخصيته على ابن عبد الوهاب، إذ كان الجاحظ قصير القامة قبيح الوجه.

لقد جمع بين المتناقضات في جسمه فهو مقدود وواسع الجفرة، ورشيق مستفيض الخاصرة يجمع بين الاستدارة والطول، ويعمق من المفارقة في خروج هذا الخصم عن الحدود البشرية إلى غيرها إذ جعله شعراً يجمع بحور الشعر معاً، يقول:" ومن غريب ما أعطيت وبديع ما أوتيت أنا لم نر مقدوداً واسع الجفرة غيرك، ولا رشيقاً مستفيض الخاصرة سواك! فأنت المديد، وأنت البسيط، وأنت الطويل، وأنت المتقارب. فيا شعراً جمع الأعاريض، ويا شخصاً جمع الاستدارة والطول"(ير ير).

ويحاول إيجاد التعليلات المناسبة والتماس الأعذار لهذه المتناقضات إمعاناً في السخرية "بل ما يهمك من أقاويلهم ويتعاظمك من اختلافهم، والراسخون في العلم والناطقون بالفهم يعلمون أن استفاضة عرضك قد أدخلت الضيم على ارتفاع سمكك، وأن ما ذهب منك عرضاً قد استغرق ما ذهب منك طولاً، ولئن اختلفوا في طولك لقد اتفقوا في عرضك، وإذ قد سلموا لك بالرغم شطراً، ومنعوك بالظلم شطراً، فقد حصلت ما سلَّموا وأنت على دعواك فيما لم يسلِّموا، ولعمري إن العيون لتخطئ، وإن الحواس لتكذب، وما الحكم القاطع إلا للذهن، وما الاستبانة الصحيحة إلا للعقل إذ كان زماماً على الأعضاء وعياراً على الحواس"(سمـ ير).

تتجسد المفارقة بداية من استخدامه حرف الإضراب (بل) طالباً من الخصم عدم الاكتراث بما يقال، وترك الهم وتعظيم هذه الأقاويل في الهجاء، ويظهر للمتلقي للوهلة الأولى أن الجاحظ إنما يسعى للدفاع عنه وإنصافه، ويتبدى ذلك في الأساليب المستخدمة بداية من (بل) متبوعة بأداة الاستفهام المكونة من (ما)

[44] نفسه، ص 13.

[45] نفسه، ص14

مقترنة بالفعل المضارع (يهمك) معطوفاً عليه فعلاً آخر هو(يتعاظمك)، فالجاحظ يتعجب من الخصم، ويطلب منه أن يضرب عن هذه السخرية مستخدماً التعادل:

ما يهمك من أقاويلهم ⟷ الراسخون في العلم

يتعاظمك من اختلافهم ⟷ الناطقون بالفهم

فقد جعل هجاءهم أقاويل واختلافات، وهذا هو المعنى السطحي للنص وما يظهر عند القراءة الأولى، غير أن القراءة الأخرى، وهي المعنى العميق تظهر عكس ذلك، إذ يصفه بأشياء ويقصد عكسها، فإذا ما أكد على المستوى السطحي عدم الاكتراث بما يقولون مستخدماً (الراسخون، الناطقون، العلم، الفهم)، فإن المعنى العميق يؤكد سخريته من الخصم، إذ يرسم له صورة مشوهة تحمل من المفارقات والسخريات؛ ما يجعل المتلقي يستلقي على ظهره من شدة الضحك، فاتساع عرضه قد منع من إدراك طوله، ولئن اتفق الجميع على اتساع عرضه وهو أمر معيب، فإنهم قد اختلفوا في طوله؛ ولتأكيد ذلك يستدعي بيت أبي دؤاد الإيادي:

سَمِنَتْ واستحشَّ أكرَعُهَا لاالنْ نَي نيٌّ ولا السَّنام سَنَامشم ير

وتتمثل المفارقة في أنه يستخدمها في عكس ما يريد، فبيت أبي دؤاد ورد في سياق مدح ناقته، والجاحظ يستدعيها ويريد على المستوى السطحي المدح في حين يدل المعنى العميق على هجاء خصمه والسخرية منه.

وتعميقاً للمفارقة يعطي ابن عبد الوهاب حق الرد والدفاع عن نفسه، إذ يدافع عن أفضلية العرض على الطول مستشهداً بالشعر والقرآن الكريم؛ ليرد عليه بعد ذلك متهكماً في طرق استدلالاته، فقد لجأ الخصم إلى " معارضة الحجة بالشبهة، ومقابلة الاضطرار بالاختيار، واليقين بالشك، واليقظة بالحلم"(لهـ ير)، فهو يقلب الوقائع ويواجه الحقائق بظلالها، وتزداد المفارقة حدة أن الذي دفع ابن عبد

[46] الصالحي، أنور والسامرائي هاشم، ديوان أبي دؤاد الإيادي، دار العصماء، دمشق – سوريا، ط1 ،1431ه – 2010م ص 166.
[47] نفسه ، ص 19.

الوهاب إلى ذلك هو ما خص به من إيثار الحق وما ألهمه من فضيلة الإنصاف، حتى صار أحوج مايكون إلى الإنكار أذعن مايكون بالإقرار(□ ير) .

ويثري المفارقة من خلال استخدامه رمزين هما: الذهب والخمر، وهما رمزان للحسن والقيمة والقدم ومقاومة الدهر، وتأثيرهما في العقول والألباب، والرموز عادة" لا تشير إلى أشياء محددة محسوسة في الخارج، وإنما تشير إلى حالات نفسية غامضة تند عن التحديد"(□ ير)، كما أن الرمز" يبدأ من الواقع المادي المحسوس؛ ليحول هذا الواقع إلى واقع نفسي وشعوري تجريدي يند عن التحديد الصارم"(لحسم)، وهو يستخدم الرمزين في صنع مفارقة بينهما، وبين تقادم ميلاد خصمه(لخسم)، مدعياً أن عمره أطول من عمر الذهب والخمر، وحسنه فاق حسنهما، ويبالغ في ذلك بأنهما ذلا بوجوده، وتتعمق المفارقة باستدعاء قول الأعرابي" ما أقول؟ أقول: رفعك الله وقد رفعك، أم أقول: جملك الله وقد جملك، أم أقول: عمَّرك الله وقد عمَّرك، ولكن أقول: وهل أنطق إن نطقت إلا رجيعاً وأقول ما قلت إلا لغواً"(برسم).

تاه الأعرابي في الظلام، فلما عرف طريقه بضوء القمر دعا للقمر بالعلو والرفعة والحسن والبقاء، والجاحظ بذلك يعمق المفارقة بين الموقفين، فالمفارقة واضحة بين الخمر والذهب من جهة، والخصم من جهة أخرى، وهو بهذا يذم الخصم بأن الله قد أذله وقبحه، لكن هل يضيف إلى حقيقة هذا الخصم الدنيئة شيئاً، كما أن الأعرابي لم يضف شيئاً بدعائه للقمر.

يسبح الجاحظ الله تعالى؛ لتسوية أخلاق صاحبه(ترسم)، فقد جعل أخلاقه موائمة لأعرافه، وجعل أقواله متوافقة مع أفعاله، هذا هو المعنى السطحي الذي يدركه المتلقي، وتجسد المفارقة معنى آخر عميقاً يناقض المعنى السابق، فأعراقه وأصوله دنيئة، وكذا أفعاله؛ ولذا جاءت أخلاقه وأقواله متلائمة مع هذه الأصول والأفعال الدنيئة، ومما يزيد المفارقة ثراءً كثرة استخدامه لضمير المخاطب (أخلاقك، أعراقك،

---

[48] نفسه.

[49] زايد، علي عشري، بناء القصيدة العربية الحديثة، مكتبة ابن سينا، القاهرة – مصر، ط4، 1423هـ 2002م، ص 106.

[50] نفسه ص 107.

[51] الجاحظ، التربيع والتدوير، ص 33.

[52] نفسه، ص 34.

[53] نفسه، ص 51.

قولك، فعلك)، ويستخدم أيضاً الثنائيات الضدية التي تكشف عن صراع ظاهري وتنافس بين الخصم والجاحظ على النحو الآتي:

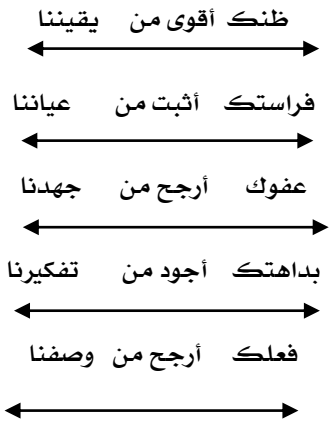

وما يريده هو العكس، وهو أن الخصم لا يمتلك يقيناً ولا فراسة ولا عفواً ولا بديهة ولا فعلاً، ويلتفت الخطاب من المتكلم إلى الغائب(حضور السادة، عقاب الظلمة)؛ ليجعل من المسألة قاعدة وحقيقة مقرة، ومسألة منطقية لا تقبل الشك، وهو من خلال هذه الأساليب والثنائيات الضدية يرفع من شأن خصمه ظاهراً؛ ليحط في الحقيقة من شأنه إلى أدنى مرتبة.

ويقيم المفارقة بين وضعين مختلفين يبرزان في موقف الخصم من شخصيتين متناقضتين: تتجلى الأولى فيمن يتعمد ويتهاون ويصر، وتتجلى الثانية فيمن كانت هفوته بكر وذنبه النسيان، وهو مع ذلك مخلص مطيع(يرسم)، وتبرز المفارقة في موقفه من هاتين الشخصيتين، فالمتوقع أن يكون حازماً مع الأولى متسامحاً مقبلاً مع الثانية، غير أن الذي حدث هو العكس، إذ عمد إلى العفو عن الأولى والتوعد للأخرى.

وفي موضع آخر يقول: "وقد علمت أن عتابك أشد من الصَّريمة، وأن تأنيبك أغلظ من العقوبة، وأن منعك إذا منعت في وزن إعطائك إذا أعطيت، وأن عقابك على حسب ثوابك، وأن جزعي من حرمانك في

[54] نفسه، ص 51.

وزن سروري بفوائدك، وأن شين غضبك كزين رضاك..."سمسم. نلاحظ تمهيده للمفارقة من خلال استخدام أداة التحقيق(قد) المتبوعة بفعل ماض(علمت) الدال على اليقين، أي ثبوت اليقين على صفات الخصم، ويتجلى التهكم بالخصم ظاهراً من بداية الفقرة، فما يريده الجاحظ عكس ما أشار إليه، وتزداد المفارقة عمقاً في بروز ذات المخاطب الخصم باستخدام ضمائر الخطاب الموجهة إليه، إذ ورد ضمير الخطاب في الفقرة(14) مرة، وضمير(تاء المخاطب) ثلاث مرات متصلة بالأفعال:(علمت، أعطيت، لستَ)، ولمحاولة تأكيد كلامه ظاهراً يستخدم أن واسمها وخبرها(سبع مرات) على النحو الآتي

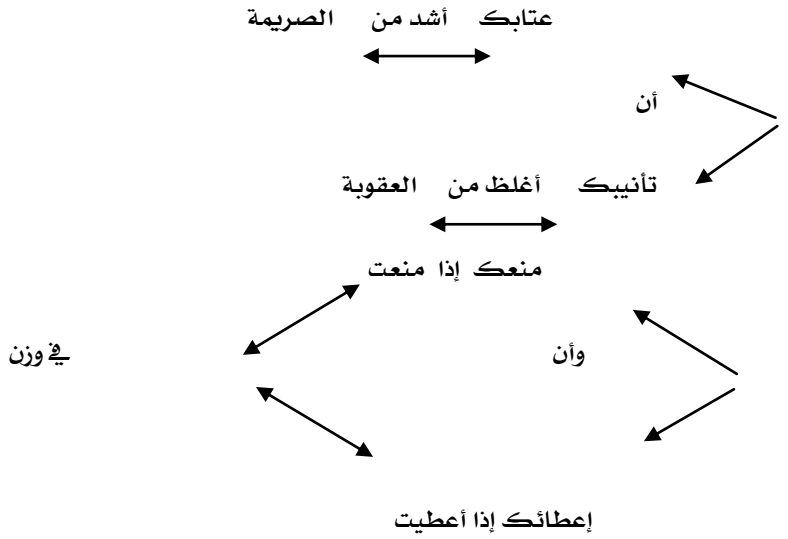

نلاحظ هنا استخدامه (إذا) الظرفية، فما يمنعه يساوي ما يعطيه، والمتلقي يفهم من خلال القراءة الأولى أنه إذا منع ما يعطيه منع ذلك بقوة، وحال دون وصول العطاء؛ ولذلك استخدم (منع) ولم يستخدم (حرم)؛ لأن في المنع زيادة على الحرمان، وهو الإحالة بين الرجل وبين الشيء الذي يريد، وإذا أعطى أعطى بقوة أيضاً، إذ يساوي بينهما مستخدماً(على وزن)، وهو ما يتناسب مع المنع والإعطاء، غير أن القراءة الأخرى تدل على أن هذا الشخص ضعيف لا تأثير له، ولا يستطيع أن يمنع شيئاً فضلاً عن أن يعطيه.

[55]نفسه ص 52.

وتتجسد المفارقة أيضاً في استخدامه لبنية التضاد في النص:(منعك/ إعطاءك، عقابك/ ثوابك، غضبك/ رضاك، حزن/سرور، موت/حياة،انقطاع/اتصال...)، "ولغة المفارقة في قمة شعريتها تتجاوز الإطار المعجمي الذي يقدم للمبدع بنى التقابل في ثنائيات تلازمية على نحو محفوظ"شمسم، وتجسد هذه الشبكة من التضادات المفارقة التي يعيشها الخصم بإحساسه بكل ما هو عالٍ ونبيل، في حين أن الحقيقة عكس ذلك؛ لذلك يعمد إلى خلق جو من التوتر يكشف الحقيقة بأسلوب ساخر، وهذا التوتر حاصل بين الكلمة وما يقابلها، وأحياناً بين المفارقة الناتجة عن التخالف، والتخالف كما يعرفه محمد عبد المطلب" أن تكون اللفظة الأولى مخالفة للثانية على نحو شبيه بالتضاد، مع ملاحظة وجود تناسب بين الطرفين، فهو تخالف من جانب، وتناسب من جانب آخر ينتهي إلى بناء تقابلي ... وعملية البحث عن علاقات التخالف هي حركة على المستوى الداخلي للبنية، إذ تكشف عن حركة العقل في التحرك بين متقابلين هما: التخالف والتناسب، وانعكاس ذلك في صياغة تجمع بين الأمرين معاً، لكن تجليها لا يوجد إلا برصد العلاقة الخفية"(لهسم) .

ومن ذلك أيضاً قول الجاحظ: "... وأن جزعي من حرمانك في وزن سروري بفوائدك، وأن شين غضبك كزين رضاك، وأن موت ذكري بانقطاع سببي منك كحياة ذكري مع اتصال سببي بك"(□سم)، فالجاحظ يعمد إلى توزيع بنية التخالف على نحو يحقق الضدية على المستوى السطحي على النحو الآتي:

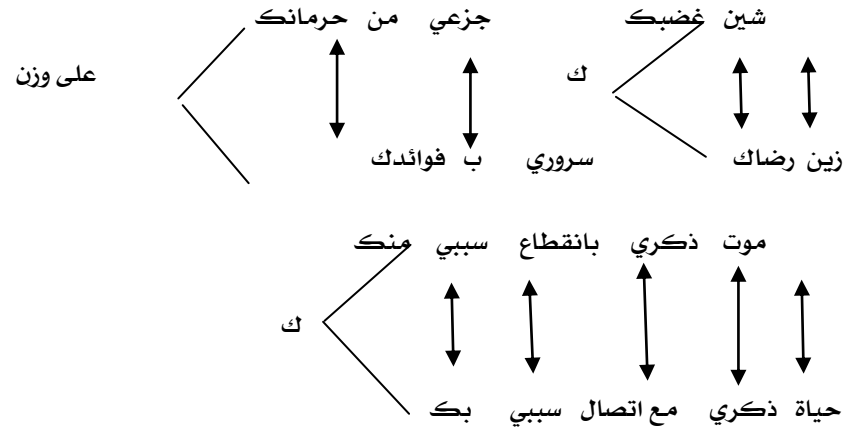

[56] عبد المطلب، محمد، قراءات أسلوبية في الشعر الحيث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995م، ص 63.

[57] عبد المطلب، محمد، بناء الأسلوب في شعر الحداثة – التكوين البديعي، دار المعارف بمصر، ط2، 1995م، ص 233، 234.

[58] الجاحظ، التربيع والتدوير، ص 52.

وتتحقق المفارقة في دلالة محاولة الجمع بين المعنى السطحي للمدح وبين الخصومة القائمة بين الطرفين، غير أن النظر على مستوى البنية العميقة تدل على أن التناسب المستحق من كون الجاحظ إنما يقصد بكل ذلك التهكم من خصمه، والحط من منزلته، كما أنه يقدم ما يدل على المنع والعقاب والجزع من الحرمان والغضب على العطاء والثواب والفوائد والرضا؛ إمعاناً في التهكم من شأن الخصم الذي لا يملك أن يدفع عن نفسه فضلاً أن يعطي الآخر، وهو يقابل بين (حرمان، فوائد) على الرغم من أن اللفظين ليسا متضادين، فالحرمان يقابله الإعطاء، وهو يستخدم هنا(فوائد) التي تترتب على الإعطاء؛ لبيان شدة هلع الخصم وطمعه إذ لا يمكن أن يهب شيئاً.

ويلعب الاستفهام دوراً في التمهيد للمفارقة، ويتبدى ذلك جلياً بكثرة استخدامه لأدوات الاستفهام(□سم) وفي مقدمتها(هل)، ولإثراء المفارقة وزيادة حدتها ينوع من سياق أداة الاستفهام(هل): إذ يتلوها تارة فعل، وأخرى اسم، وثالثة جار ومجرور، حيث يكثر من استخدام الأفعال(خصم، ند، مجار، ضد، لا يتبلغك، لا تضرك، تسمو إليك، لست أهلاً...الخ)، يحاول في هذه الأفعال رسم صورة مفارقة للخصم، إذ يرسم له صورة الكمال في أنه لا يعتريه نقص، فهو تام في العلم والفهم والحلم والعزم، لا تسمو إليه المنى، ولا يضره حسد، ولا تؤثر فيه عين، ولا يطمع فيه طامع، كما أنه مهوى الأفئدة، ومبتغى الجميع.

ويخرج الاستفهام من دلالته الأصلية إلى الإنكار، حيث تتخذ الدلالة هنا مسارين مختلفين: الأول دلالة المعنى السطحي المباشر، وهو الإعلاء من شأن الخصم والرفع من منزلته وإحاطته بصفات الكمال، والمسار والآخر دلالة المستوى العميق، فهو حين يرفع من منزلة خصمه إنما يخفضها، وعندما يشعر الخصم بالكمال، إنما يسخر منه ويعريه أمام نفسه قبل أن يكشف حقيقته أمام الآخرين، وهو يكثر من استخدام ضمائر المخاطب الموجهة إلى الخصم(تمامك، لك، يتبلغك، تضرك، إليك، فيك، منك، عنك، سواك، عليك،...الخ). هذه الكثرة توجه مسار الدلالة نحو تقريع المخاطب، والحط من منزلته، ولإيصال هذه الدلالة السلبية إلى المتلقي يستعين بعدة أدوات مثل:(حتى، إلا، سوى،غير، فيك) مسبوقة بـ(هل) للدلالة على القصر.

هل غاية الجميل إلا وصفك

هل زين البليغ إلا مدحك

[59] نفسه، ص 54.

هل يأمل الشريف إلا اصطفاءك

هل يرجو الملهوف إلا غياثك

هل للطلاب غرض سواك

هل للغواني مثل غيرك

فالأماني لا تسمو إليه؛ لأنه ليس أهلاً أو مكافئاً لها، كما أنه لا قيمة له، ولا يمتلك شيئاً حتى يطمع فيه، وبالتالي لا يطمع فاضل في أن يفوقه، كما أنه لا تضره العين، ولا يبلغه الحسد؛ لأنه أهون من أن تصيبه عين.

ولا يكتفي باستخدام (هل)، إذ يستخدم أيضاً غيرها من أدوات الاستفهام مثل: (من، أي، أين، الهمزة)، وهو في هذا التلوين الاستفهامي يثري المفارقات التي تكشف عن حقيقة هذا الخصم" أم من الشبيه بك في منزلتك؟ ألست خَلَف الأخيار وبقية الأبرار؟ وأي أمرك ليس بغاية؟ وأي شيئ منك ليس في النهاية"(لحشم).

يمهد للمفارقة في حديثه عن حسن صاحبه وجماله بأداة الاستفهام (أين)(لخشم) مبالغاً في الإطراء والوصف وذلك باستخدام جمل تجاوز الحد المعقول في الوصف، وتزداد حدة المفارقة من خلال استخدام حرف الإضراب(بل) مسبوقاً بـ(لا) النافية، إذ يوهم المتلقي أن مسار الدلالة سيتغير، ليفاجأ المتلقي أن الجاحظ يسير على نفس المسار السابق من خلال تكرار جمل تتقارب مع الجمل السابقة.

أين ⟷ لا بل أين

الحسن الخالص ⟷ الحسن المصمت

الجمال الفائق ⟷ الجمال المفرد

الملح المحض ⟷ الملح المنثور

الحلاوة التي لا تستحيل ⟷ الفضل المشهور

التمام الذي لا يحيل ⟷ الكمال الغريب

[60] نفسه، ص 55

[61] نفسه

ومن مفارقاته أنه يرسم لابن عبد الوهاب صورة يجعلها مثالاً تتجاوز كل حد وتفوق كل المقاييس الجمالية، حيث يرسم صورة مثالية لفصاحته وبلاغته(برشم)، فقد انفرد بحسن جماله البدني وحور عينيه، يقول: "فأما حور العين فقد انفردت بحسنه وذهبت ببهجته وملحه، إلا ما أبانك الله به من الشُّكلة، فإنها لاتكون في اللئام ولا تفارق الكرام"(ترشم)، ولتعميق المفارقة يستدعي ما فعله عمر بن الخطاب مع نصر بن حجاج وجعدة السلمي مدعياً أن عمر بن الخطاب لو أدركه لترك التشاغل بهما وتركهما رحمة، وتشاغل بابن عبد الوهاب، إذ لم يبق مع حسنه توبة، ولا تصح معه عقيدة أو يثبت معه عزم أو يمهل صاحبه التثبت، فمع هذا الحسن تنسى العواقب(يرشم).

وفي موضع آخر يجمع بين حسن جماله البدني، وحسن طباعه وأخلاقه وكمال صفاته مستدعياً الأمثال والأعلام العربية التي تؤكد رؤيته، يقول:" هو أحسن من القمر وأضوأ من الشمس وأبهى من الغيث، ولهو أحسن من يوم الحلبة، وأنا لا نستطيع أن نقول في التفاريق كأن عنقه إبريق فضة، وكأن قدمه لسان حية، وكأن عينيه ماوية، وكأن بطنه قبطية، وكأن ساقه بُرديّة، وكأن لسانه ورقة، وكأن أنفه حد السيف، وكأن حاجبه خط بقلم، وكأن لونه الذهب، وكأن عوارضه البرد، وكأن فاه خاتم، وكأن جبينه هلال، ولهو أطهر من الماء، وأرق طباعاً من الهواء، ولهو أمضى من السيل، وأهدى من النجم..وكيف لا يكون ذلك وأنت الغاية في كل فضل، والنهاية في كل شكل"(سمشم)، ويستمر بوصف طيب أصله ورغد عيشه وحيائه وحكمته...الخ، ووصف بدنه من كف وقدم وفم مستدعياً التاريخ العربي وما فيه من أمثلة وأعلام، ومستخدماً الألفاظ الفلسفية والأساليب المنطقية(شمشم).

ويحاول الجاحظ إقامة علاقة جدلية بين ابن عبد الوهاب وبين القمر بالمبالغة في الادعاء أن ابن عبد الوهاب يفوق القمر في حسنه ومنزلته ونفعه للخلق(لهشم)، إذ يصف القمر بأنه ضئيل ونضو ومعوج شخت(□شم)، يحترق ويقرض الكتان ويخم(□شم) اللحم، ويبالغ في ادعائه الكمال لابن عبد الوهاب وأنه لا

---

[62] نفسه، ص 20، 59

[63] نفسه، ص 22

[64] نفسه، ص 60

[65] نفسه، ص 57

[66] نفسه، ص58- 62

[67] نفسه، ص 63، 64

[68] الشخت: هو الدقيق من الأصل لا من الهزال، وقيل: هو الدقيق من كل شيء.

يعتريه النقص، وتتضح هذه المبالغة في تتبع الألفاظ الدالة على هذه الأوصاف، وكأنها زخات رصاص متتابعة (دائم، ظاهر، ثابت، شائع، دري، سليم الجوهر، كريم العنصر...)، وهو بذلك يسلبه كل تلك الصفات، ويصيبه باليأس من محاولة ادعائها، ويستمر الجاحظ في هذا العزف على المقارنة بينهما مقابلاً بين صفة وما يقابلها:

القمر ابن عبد الوهاب

المد والجزر ⟷ العلم والحلم

طاعته طبع واضطرار ⟷ طاعته اختيار واعتبار

ضياؤه مستعار من الشمس ⟷ ضياؤه عارية عند جميع الخلق

له منازل لا يجوزها ⟷ حر في التصرف

وإذا كان القمر ليس بذي توقد واشتعال ولا خالص البياض، ولا يتلألأ إلا ليلة اكتماله، ويعلوه الصفار، فإن ابن عبد الوهاب ظاهر التمام دائم الكمال، وكماله نابع من أصل عنصره وسلامة جوهره، فهو ناري التوقد دري اللون روحاني البدن، نلاحظ استخدامه للمصطلحات الفلسفية(الجوهر، العنصر، روحاني البدن) للدلالة على ما يدعيه.

الخـاتمــة: المفارقة: شكل من أشكال القول له معنيان: سطحي ظاهر، وعميق مراوغ مخالف للسطحي، إنه موقف ورؤية تأملية للحياة المليئة بالمتناقضات، ولم يرد مصطلح المفارقة في مصادر الأدب العربي، غير أن ثمة مصطلحات تقارب المفارقة في مفهومها مثل: التهكم والسخرية...وقد اختلفت تعريفات المفارقة، وتعددت أشكالها بدءاً من الفلاسفة اليونانيين، وانتهاءً بالنقاد والفلاسفة المحدثين، غير أن ما يجمع بين هذه الرؤى أن المفارقة عندهم تقوم على المراوغة وازدواج الدلالة، فالدال يحمل مدلولين: أحدهما عام، والآخر خاص، كما أنها توجه المتلقي نحو هذا المدلول الخاص.

وأول ظهور لمفهوم المفارقة كان عند أرسطو، كما ظهر عند أفلاطون في جمهوريته، وبرزت المفارقة بوصفها مصطلحاً أدبيًا في القرن الثامن عشر الميلادي، لتني قول المرء نقيض ما يعنيه، وأول بذرة لنشوء

---

[69] خمّ اللحم أي: أنتن.

المفارقة هي السخرية، إذ تزيل التناقض بين المعنى الظاهري والمعنى العميق، والمفارقة أعم من السخرية، فليست كل سخرية مفارقة.

وتتناول المفارقة في هذا البحث تهكم الجاحظ بخصمه أحمد بن عبد الوهاب، حيث يقوم برسم صورة لشكله الخارجي ولصفاته، يسعى بذلك إلى التهكم بهذا الخصم مستخدماً البنية المعجمية لجسمه، وما يدعيه من صفات، حيث يقوم بمحاكمته من كلامه، وبيان ما تحمله هذه الادعاءات من مفارقات، ولبيان ذلك يستعين بكثير من الصيغ، أبرزها: الاستفهام الاستنكاري، والمبالغة في الأوصاف الممنوحة للخصم، والثنائيات الضدية، والدعاء للخصم...، ويوضح الجاحظ القياس الفاسد الذي يتخذه الخصم في ادعاءاته، فالجميع يتفقون على صفات الخصم، غير أنها صفات القماءة والقصر، ولعل الجاحظ في ذلك يسعى إلى إسقاط ما في شكله من قماءة على خصمه، ويحاول التماس الأعذار لهذه الصفات المتناقضة؛ إمعاناً في التهكم منه، طالباً منه ألا يكترث بما يقال عنه.

نلحظ أن الجاحظ يرسم لخصمه صورة مثالية تجاوز كل حد، وتفوق جميع المقاييس الجمالية في شكله وفصاحته...، ويبرز ذات الخصم في كثرة استخدام ضمائر الخطاب الموجهة لهذا الخصم؛ إمعاناً في التهكم، ويساوي أيضاً بين عطاء الخصم ومنعه، وغضبه ورضاه وعقابه وثوابه قصداً لاستلابها منه.....

ويزيد المفارقة حدة بعقد مقارنة بين أمرين:

الأول: الذهب والخمر في قدمهما وتأثيرهما في العقول والألباب، إذ يدعي أن الخصم فاق الذهب والخمر عمرًا وحسنًا، فقد ذُلَّا بوجوده.

والثاني: الخصم والقمر مدعياً أن خصمه يفوق القمر في حسنه ومنزلته ونفعه للخلق، وهو في كل ذلك يستدعي الآيات القرآنية، والأبيات الشعرية، وأقوال الصحابة والأعراب، والأمثال العربية، والألفاظ الفلسفية، والمقاييس المنطقية.

وتتجلى المفارقة أيضًا في موقف الخصم المتسامح مع المتعمد المتهاون، والحازم مع المخلص المطيع، وهو في مفارقاته يستعين بالتضاد والاستفهام والشرط؛ للكشف عن هذه المفارقات.

المصادر و المـــراجـــع:

1 - القرآن الكريم.

2 -إبراهيم، نبيلة، قضايا المصطلح الأدبي، مجلة فصول، الهيئة المصرية العامة للكتاب ، مج7،ع3،4، إبريل - سبتمبر 1987.

3 - ابن أبي الإصبع، تحرير التحبير في صناعة الشعر والنثر وبيان إعجاز القرآن، تحقيق/ حفني محمد شرف، المجلس الأعلى للشؤون الإسلامية، القاهرة ،1995.

4 - البعلبكي، منير، المورد، دار العلم للملايين، بيروت – لبنان.

5 - الجاحظ، التربيع والتدوير، عُني بنشره وتوقيعه/ شارل بلات، المعهد الفرنسي بدمشق، دمشق سوريا، 1955م.

6 - رشيد، أمينة، المفارقة الروائية والزمن التاريخي، مجلة فصول، م11 عدد4 1993م.

7 - زايد، علي عشري، عن بناء القصيدة العربية الحديثة، مكتبة ابن سينا، القاهرة – مصر، ط4، 1423هـ 2002م.

8 - سليمان، خالد، المفارقة والأدب - دراسات في النظرية والتطبيق، دار الشروق، عمان– الأردن، ط1، 1999م.

9 - شوقي، سعيد، بناء المفارقة في المسرحية الشعرية، إيتراك للطباعة والنشر والتوزيع، القاهرة – مصر، ط1، 20001م.

10 - الصالحي، أنور والسامرائي، هاشم، ديوان أبي دؤاد الإيادي، دار العصماء، دمشق – سوريا، ط1 ،1431ه – 2010م.

11 - عبد المولى، أحمد عادل، بناء المفارقة – دراسة نظرية تطبيقية – أدب ابن زيدون نموذجاً، مكتبة الآداب، القاهرة – مصر، ط1، 1430هـ - 2009م.

12 - ضيف، شوقي، الفن ومذاهبه في النثر العربي، دار المعارف بمصر، القاهرة– مصر ط9.

13 - عبد الجليل، حسني، المفارقة في شعر عدي بن زيد العبادي – الموقف والأداة، دار الوفاء، الاسكندرية – مصر، ط1، 2009م.

14 - العبد، محمد، المفارقة القرآنية دراسة في بنية الدلالة، مكتبة الآداب، القاهرة، ط2، 1406هـ - 2006م.

15 - عبد المطلب، محمد، قراءات أسلوبية في الشعر الحديث، الهيئة المصرية العامة للكتاب، 1995م.

16 - عبد المطلب، محمد، كتاب الشعر، الشركة المصرية العالمية للنشر - لونجمان، ط1، 2002م.

17 - العلوي، يحيى بن حمزة، الطراز: تحقيق/ عبد الحميد هنداوي، المكتبة العصرية ، بيروت - لبنان، ط1، 1423هـ - 2002م.

18 - قاسم، سيزا، القص العربي المعاصر، مجلة فصول، مج2، عدد2، فبراير - مارس 1982م.

19 - ابن منظور، لسان العرب، دار إحياء التراث العربي – مؤسسة التاريخ العربي، بيروت – لبنان، ط2، 1418هـ 1997م.

20 - ميويك د. سي، المفارقة وصفاتها، ضمن كتاب موسوعة المصطلح النقدي، ترجمة/ عبد الواحد لؤلؤة، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت – لبنان، ط1، 1993م.

21 - هلال، محمد غنيمي، النقد الأدبي الحديث، نهضة مصر للطباعة والنشر، القاهرة، 1997م.

22 - وهبة، مجدي – المهندس كامل، معجم المصطلحات العربية في اللغة والأدب، مكتبة لبنان، بيروت – لبنان، ط2، 1984م.